أعـــلام الفلســـفة

الفلسفة الرواقية

تأليف

الدكتور عثمان أمين

مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

تصدير

هذا هو الكتاب الثانى من سلسلة « أعلام الفلسفة » التى شرعت فى إصدارها منذ بضع سنين ، وقد افتتحتها بكتاب عن « ديكارت » ظهر سنة ١٩٤٢ .

و « الفلسفة الرواقية » التى أقدمها اليوم لقراء العربية بحث جديد فى لغتنا : فإن العرب إذا كانوا قد عرفوا مشاهير فلاسفة اليونان — لا سيما سقراط وأفلاطون وأرسطو — وترجموا لهم ، ونسبوا أحيانا إلى بعضهم أقوالا وكتبا ليست لهم ، فإنهم مع ذلك يكادون يجهلون مذهب الرواقيين ، وقليلون منهم يذكرون أسماءهم ، والأكثرون لا يتعرضون لفلاسفة الرواق إلا تلميحا . وأما المتأخرون من كتاب العربية الذين كتبوا فى تاريخ الفلسفة اليونانية فإنهم على قلة عددهم لم يوردوا عن الرواقية فى الأغلب إلا فصلا أو بعض فصل ، أو شذرات لا تكفى القارىء الذى يريد معرفة الفلسفة الرواقية على حقيقتها . فاذا كانت البحوث التى تعالج فيلسوفا بعينه أو تتناول مذهباً خاصاً قليلة العدد جداً فى لغتنا — كما هو معلوم — فلعل هذا الكتاب يعين الباحثين والمضطلعين بشئون التعليم على أن يسدوا ثلمة ظاهرة فى دراسة الفلسفة وتاريخها فى العالم العربى .

* * *

وأود أن أنبه القارىء إلى أن الرواقيـة ، كأكثر المذاهب الفلسفية اليونانية بعد أرسطو ، هى فلسفة قامت كى تسد حاجة عملية قبل أن تستجيب لرغبة فى المعرفة النظرية . وفلسفة من هذا القبيل ، ظهرت فى مثل الظروف التى أحاطت بالرواقيـة ، ينبغى ألاّ ندهش إذا وجدنا شطراً كبيراً منها وكأنما قد وضع فحسب تقوية للدعائم الأساسية وربطا للأركان الأصلية بعضها ببعض ، حتى يكون من البناء كله مذهب متجانس متناسق . ويخيل إلى أننا إذا حرصنا على أن نقدر الرواقية تقديراً معقولا ، وأردنا أن نتفهم المبادىء التى هدت أصحاب الرواق فى تأسيس مذهبهم ، لزمنا أن نميز فى تلك الفلسفة بين المسائل الأصلية التى كانت تشغل بال أصحابها حقا ، وبين ما كان منها دخيلا وكأنما قبلوه لسد فراغ ، أو « ملأ خانة » كما نقول اليوم فى لغتنا ... ولـكن تلك مهمة ليست فى الحق يسيرة . فما نـكاد نحاول أداءها حتى نجد أنفسنا فى واد تـكثر فيه الفروض والآراء والميول والاهواء . ولـكنا نحسب مع ذلك أن مثل تلك المحاولة — وإن شئت فقل «المجازفة» — هى أمر ضرورى فى كل تفسير عميق لعمل من الأعمـال البشرية : فمن المؤكد أننا إذا التزمنا الأخذ بالظاهر أو بما يسمى « بالأمر الواقع » أو « الحقيقة الموضوعية » ، كان حظنا من الخطأ قليلا . ولـكننا فى الوقت نفسه قد نفوّت على أنفسنا كل احتمال لمعرفة الأشياء معرفة غير سطحية ، ونضيّع كل فرصة للنفاذ إلى بواطن الأمور .

* * *

حاولت إذن فى هذا الـكتاب أن أبسط العناصر الرئيسية فى فلسفة الرواق ، كما استخلصتها من المصادر المتفرقة التى يستطاع الرجوع إليها فى اللغات الأوروبيـة قديمة وحديثة ، كما حاولت أن أتعقب ما خلفته تلك

الفلسفة من آثار عميقة فى المذاهب والمعتقدات الإنسانية مدى قرون . وفى ذلك كله لم أحجم عن تأويل الوقائع كما بدت لى بعد الدرس والتأمل ، ولم أعرض عن فرض الفروض حيث تعوزنا المادة اليقينية . ووضع الكتاب وترتيب أبوابه وأختيار موضوعاته على نحو ما فعلت هو أيضا ضرب من التأويل .

* * *

وقد بذلت فى هذا البحث غاية جهدى : شرعت فيه أثناء دراساتى بجامعة باريس منذ أكثر من عشر سنوات ، وكتبت أكثر أبوابه إبان اشتغالى بإعداد رسالة الدكتوراه ، وأتممت بعض فصوله فى أوقات الفراغ من إجازاتى الصيفية فى بعض البلاد الأوروبية . وأحب أن أسجّل أنى مدين بالكثير مما استطعت أن أقوم به من تحقيق علمى لثلاث من دور الكتب الباريسية : المكتبة الأهلية ، ومكتبة السربون ، ومكتبة « سانت جنفييف » . فهو أثر من حياة الدرس والجد فى مدينة الفكر والعرفان التى يسعدنى اليوم أن أهدى إليها هذا الكتاب .

عثمان أمين

القاهرة فى أكتوبر ١٩٤٤

الباب الاول

الرواقية والرواقيون

مقدمة

١ — الفكر اليونانى قبل الرواقية :

١ — كان البحثُ فى المادة الأولى أهمَّ ما نظر فيه فلاسفة اليونان قبل سقراط . وهذه المادة الأصلية التى تكونت الأشياء منها وضعوها أولاً جوهراً واحداً يشمل جميع الموجودات ويبقى بعينه مهما اعتراه من تغير أو تحول . ثم سادت بعدُ فكرة أخرى ذهبت إلى أن المادة مركبة من كثرةٍ من الأجسام المنصرية قد امتزج بعضها ببعض امتزاجا متفاوتا . وأفضت هذه الفكرة ، ممثلةً فى مذهب « لوقيبس » ومذهب « ديموقريطس » ، إلى النظرية الذرية أو نظرية الجزء التى هى أكمل صورة لفلسفة المادة[1] .

ولكن نظرية جديدة قامت فكان الفوز حليفها : كان لا بد للفلسفة أن تدرك أن الجوهر الصحيح للأشياء ليس هو المادة ، بل هو مبدأ من نوع آخر : هو مبدأ « الفعل » و « الكيفية » و « الكمال » . وقد كان « فيثاغورس » أولَ من اهتدى إلى تلك النظرية ، ولكن كان انتصارها بفضل ما بذل أفلاطون من جهود روحية باقية : رأى أفلاطون أن الأشياء المادية ليس لها فى ذاتها وجود حقيقى ، وإنما الذى له الوجود الحقيقى هو « المثال » الذى ينتظم ، فوق العالم الحسى المُساق فى تيار الصيرورة ، عالمَ المعقولات الخالدة والماهيات الكاملة والحقائق الثابتة .

---

(١) انظر التفصيل الوافى عند الأستاذ يوسف كرم فى كتابه : « تاريخ الفلسفة اليونانية » . القاهرة ١٩٣٦ ص ٩ بع .

ثم جاء أرسطو فاستطاع أن ينتفع من جميع التيارات الفكرية السابقة ، وقدّم للإنسانية نموذجا للنظر الفلسفى السليم ؛ وبلغت الفلسفة اليونانية أوجها فى مذهبه المحكم البنيان : أقام أرسطو فلسفته على دراسة الطبيعة دراسة استقصاء واستيعاب وتغلغل إلى بواطن الأمور ؛ وما كان أسرع ما بدا له أن التأمل الفلسفى لا ينبغى له أن يتخلى عن هذا العالم إلى عالم آخر قد يستهدف فيه إلى انقطاع الصلة بينه وبين الواقع الحاصل ، ورأى أن مهمة الفلسفة أن تفهم العالم الواقعى فهماً عميقاً : بدا لأرسطو عندئذ أن المادة أشبه بغلاف يجب فضّه للوصول إلى لب الوجود ؛ ورأى أن مبدأ « الكيفية » و « الكمال » ، بدلاً من أن يوضع فى عالم منفرد ، أو أن يُفرَض كشىء مستقل عن الأشياء ، هو أحرى أن يُدرك كمبدأ باطنى كامن فى الأشياء : فهو الذى يمنحها الحركة والحياة ، وهو « المثال » الصحيح الفعال ، المثال الحاضر الشاهد المنطوى فى الأشياء نفسها . ومن هذه الوجهة استطاع أرسطو أن يقدم حلاً جديداً للمشكلة القديمة ، مشكلة اتحاد النفس بالبدن ، فاعتبر النفس « صورة » مدبرة ، تصوّر المادة وتقيمها فى جسم حى . ومن هذه الوجهة أيضاً استطاع أن يقرّ تلك النزعة العامة ، نزعة الموجودات إلى الكمال ، ولكنه اعترف أن الكمال الأعلى إنما يعدو العالم الواقع . فالفلسفة الأرسطاطالية — التى هى فلسفة الكمون — تأخذ بعنصر من عناصر التنزيه : إذ الكون والموجودات كلها عند أرسطو معلقة على الفعل المحض ، فعل الفكر الذى يفكر فى ذاته فوق العالم ، ويحيا منذ الأزل فى سعادة . وإذن ففلسفة أرسطو ما برحت مؤيدة للآراء اليونانية الأصيلة . ولما انقضى العالم القديم ، كان من آثار أرسطو ، فى القرون الوسطى ، ذلك البناء الهائل بناء الفلسفتين المسيحية والإسلامية . وعلى الرغم مما

وُجِّه إلى المذهب الأرسطاطالى من طعنات أوائلَ العصر الحديث ، بقى المذهبُ جزءاً أساسياً فى فلسفتى « لَيْبِنِتْز » و « هِيجل » الألمانيين ، وما برح أثره قائماً عند فلاسفة العصر الحاضر(١) .

وكأن الفلسفة اليونانية بعد أرسطو قد أنهكها ذلك المجهود الجبار الذى بذلته فى صعودها على مرقاة الفكر ، فأخذت حيناً من الدهر فى النزول من الذروة الشاهقة التى كان أصحابها قد حملوها إليها واشتقت لنفسها طريقاً أخرى . ولعل هذا الاتجاه الجديد كان مرجعه إلى تبدل الظروف السياسية : كانت بلاد اليونان قد فقدت حريتها ، وأضعفتها حروب « البيلوپونيز » ، وأضحت تابعة لمقدونيا ، وكادت تقع تحت سيطرة الرومان . ولقد كانت فلسفة المثل « بِنْت الحرية » كما قيل : فإن صراع اليونان من أجل استقلالها ، وفوزها على الفرس ، قد سبق مولد سقراط ببضع سنين ؛ وكانت فلسفة المثل الأفلاطونية بمثابة التعبير الرائع عن روح الحرية التى فاح عبيرها لأول مرة على ربوع العالم ؛ فلما ضاعت الحرية طوى الفكر جناحيه ، وقامت فلسفات جديدة فقصرت نظرتها على العالم الحسى عالم الشهادة ، ولم تحفل إلا بالمبادىء الجسمانية ، ولكنها عنيت رغم ذلك بالسلوك الإنسانى ، فأرادت أن تكفل للإنسان ملاذاً فى الضراء وحين البأس ؛ وخالفت النظرية الأفلاطونية التى تجعل من تأمّل « المثال » العالى مقصدَ الحياة البشرية ، وأرادت أن تقدم للناس من الخيرات ما يدخل فى الطبيعة ويكون فى متناول الناس أجمعين . وهكذا أخذت تذيع مبادىء أخلاقيات عامة جديدة ، وكان مما أعان على ذيوعها اختلاط الأمم واتصال الشعوب ، ذلك الاتصال الذى تم عقب فتوحات الإسكندر الأكبر .

(١) Ch. Werner, *La philosophie Grecque*, Paris 1938, p. 192

على أن الفلسفة الأخلاقية لم تكن بحاجة إلى الانتظار طول ذلك الزمان لكى تنهض معارضة المذهب المثالى : فالمدرسة « الكَلْبية » والمدرسة القورينائية — وكان على رأسها « أنطستانس » و « أرسطيوس » وهما من تلامذة سقراط — قد سبقتا إلى رفض المثل ، بل إلى رفض النظر العقلى بأسره ، وإلى ردّ الفلسفة كلها إلى البحث فى الأخلاق والسلوك ؛ فرأى الكلبيون الخير الأعلى فى « المجهود » ورآه القورينائيون فى « اللذة » . ولكن أرسطو حين اتخذ « المثالية » (الإيديالزم) مذهباً شاملاً ينطبق على جميع حقائق الكون ، حدث ردُّ فعلٍ قوى تجلى فى نظريات تامة ضافية ، فأصبح المذهب القورينائى مذهبَ أبيقور ، وأضحى المذهب الكلبى مذهب الرواقيين .

٢ — و « الرواقية » لفظ يطلق على المدرسة الفلسفية الكبيرة التى أنشأها « زينون » الكتيوى بمدينة أثينا أوائل القرن الثالث قبل الميلاد . ويُطلق على أنصار تلك المدرسة اسم « الرواقيين » أو « أصحاب الرواق » أو « أهل المظال »[1] ، نسبة إلى « الرواق المنقوش » (ستووا پويكيلى) (στόα ποικίλη) الذى كانت أعمدته مزدانة بنقوش من ريشة الرسام « پوليجنوط »[2] ؛ وبذلك الرواق كانت تلقى المحاضرات الفلسفية فى ذلك العهد[3] .

---

(١) الشهرستانى : « الملل والنحل » . طبع Cureton ص ٢٥٣ .

(٢) پوليجنوط رسام يونانى ، عاش أوائل القرن الخامس قبل الميلاد . ولد بجزيرة طرسوس وعاش فى آثينا ، ونقش رسوما كثيرة فى غيرها من المدن اليونانية (ديوجانس اللايرسى : « حياة الفلاسفة » — ٧ : ٣٨ بع) (Diogène Laerce, *Vie des philosophes*, VII, 38.)

(٣) ومع ذلك يظهر من رواية ديوجانس اللايرسى أن « زينون » كان يعلم تلاميذه ماشياً كالمشائين (ديوجانس اللايرسى : « حياة الفلاسفة » — ٧ : ٥) .

والرواقية القديمة معاصرة للأبيقورية . وترجع نشأة المدرسة إذن إلى أوائل العصر الموسوم بالعصر الإسكندرى ، وهو ذلك العصر الذى ازدهرت فيه الثقافة بمدينة الإسكندرية ، حين طبقت المدينة المصرية الجامعية آفاق العالم القديم شهرة ونفوذاً[١] . وقد تميز ذلك العصر الإسكندرى بخصائص قد نجد كثيراً منها فى المذهب الرواقى نفسه . وأهم هذه الخصائص ميل الناس إلى الاستكثار من المعارف وسعة الاطلاع ، وغلبة الاهتمام بالشئون العملية على الشئون النظرية الصرفة ، وتسلط الأنظار الدينية والأخلاقية على الأنظار العقلية والعلمية .

والرواقية ليست مذهباً فلسفياً فحسب ، وإنما هى كذلك وقبل كل شىء أخلاق ودين . ولعل أظهر طابع يميز الرواقية هو نزعتها الإرادية ، التى جعلتها تطّرح « المثالية » اطّراحاً دون تردد أو إحجام ؛ فالمثل أو الكليات عندها ليس لها حقيقة فى العيان : فليست موجودة خارج الأشياء ، كحالها عند أفلاطون ، ولا هى موجودة فى الأشياء ، كحالها عند أرسطو ، إنما المثل والصور عند أصحاب الرواق مجردات ذهنية ، ولا يقابلها شىء فى عالم الواقع العينى .

والرواقية ، وإن كانت قد قامت على أرض يونانية ، لا نستطيع اعتبارها من ثمار الفكر اليونانى وحده ، والأرجح أن تكون فلسفتها ثمرة للاتصال الثقافى بين الشرق والغرب[٢] ، ذلك الاتصال المشهور الذى نشأ على أثر فتوحات الإسكندر ؛ أضف إلى هذا أن أغلب أنصار الرواقية هم من الشرقيين أو يرجع أصلهم إلى أقطار ومدن شرقية كقبرص وصيداء .

---

(١) راجع مقالا لنا تحت عنوان : « لمحة إلى مجد الإسكندرية » فى « صحيفة الجامعة المصرية » ، العدد السادس ، القاهرة سنة ١٩٣١ ص ٦٣ .

(٢) Vernon Arnold, *Roman Stoicism*, p. 28.

ب — مكانة الرواقيـة وآثارها :

١ — قد يبدو لمن يدرس الرواقية فى تفاصيلها أنها فلسـفة لم تأت إلا بالقليل من العناصر المبتكرة . فأكثر ما دعت إليه مدرسة زينون من تعاليم قد يبدو أنها استقته إما من نظريات هرقليطس القديمة ، وإما من آراء الكلبيين ، أو من نظريات أرسطو وأتباعه . لـكن حكمنا على الرواقية يتغير من غير شك إذا نظرنا لا إلى ما سبقها بل إلى ما تلاها . ولم يبالغ من قال بأن الفلاسفة المحدثين — ولا سيما ديكارت وليبنيتز — مدينون لـكروسيبوس وخلفائه بمثل ما يدينون به للفلسفة الأرسطاطاليسية[١] .

والحق أن للرواقيين فى تاريخ الفلسفة شأناً خليقاً أن لا يستهان به . وقد استطاع بعض الباحثين المحدثين أن يوازن بين أثرهم فى أفكار الإنسانية وبين أثر ارسطو والمشائين . ونحن من جانبنا نقرّ تلك الموازنة ، ونعتقد أن لا ضير على الرواقيين منها ، فقد أدّانا هذا البحث إلى أن نتبين أن لأهل الرواق فى تاريخ الفكر منزلة وطيدة ، وأنهم قد يزاحمون جماعة المشائين ، وقد يسودونهم فى كثير من المسائل ذات الخطر . وبهذا الصدد قال « رُدْييه » : « إذا كان أرسطو يعتبر المعلم الأول — كما قيل — فإن أكبر أثره لا يعدو مجال المنطق والفلسفة النظرية . أما من ناحية الأخلاق والفلسفة العملية بوجه عام فيحق القول بأن الإنسانية المفكرة إنما عاشت على المذهب الرواقى حتى أدركت المسيحية ، ولبثت تتغذى منه بعدها حقبة من الزمان »[٢] . وكتب ماهافى : « ينبغى أن يبيّن الملأ أن أعظم تراث

(١) Albert Rivaud, *Les grands courants de la pensée antique*, 2e. éd. Paris 1932, p. 175.

(٢) G. Rodier, *Etudes de philosophie grecque*, 1926, p. 219.

عملى خلفه اليونان فى الفلسفة لم يكن نخامة أفلاطون ، ولا سمة علم أرسطو ، بل نجده فى المذهبين العمليين مذهبي زينون وأبيقور ، كما نجده فى تشكك بيرّون : فكل رجل فى وقتنا الحاضر هو إما رواقى وإما أبيقورى وإما متشكك »[1] . وليست الرواقية بحاجة إلى تقريظ بعد الذى صاغه لها « مُنتِسكيو » من قبلُ فى بليغ العبارة إذ قال فى كتابه « روح القوانين » : « استطاعت الرواقية وحدها أن تربّى مواطنين أحراراً ، وأن تنشىء رجالاً عظماء ، وأن تخرج أباطرة كباراً ! »[2]

٢ — قامت الفلسفة الرواقية فى بلاد اليونان قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ، وسرعان ما بلغت من الشهرة حظاً لا يقل عما بلغه أشهر المذاهب الفلسفية . فبينا نجد سائر المدارس القديمة قد انفرط عقدها بعد موت مؤسسيها ، وإن اختلف زمن اندثارها طولاً وقصراً ، إذا بالمدرسة الرواقية تقوم قوية ، فتسير فتية ، وتعمر طويلا ، فلا ينقطع عنها سيل الدعاة والأنصار مدى قرون . نعم قد انبرى لها هنا وهناك من حين إلى حين خصوم أشداء يناصبونها العداء ، فقامت الحرب سجالاً بينها وبين أنصار « الأكاديمية » وأنصار « الأبيقورية » ؛ إلا أنها استطاعت — رغم تواتر الطعنات عليها — أن تغالب جميع المصاعب وأن تقتحم طريقها مؤيدة مظفرة .

ولم يقتصر نفوذ الرواقية على العالم القديم أيام شيوخها الأولين — « زينون » و « كليانتس » و « كروسيبوس » — بل جاوزه إلى العالم الرومانى ، وكان ممن عمل على نشرها فيه « شيشرون » الخطيب والمحامى

(١) Mahaffy, *Greek life and thought*, Intr. p. XXXVII, XXXVIII.

(٢) Montesquieu, *Esprit des Lois*, t. 24, ch. 10.

الرومانى الذائع الصيت ؛ واعتنق مبادىء الرواقية بعدُ طائفة من فلاسفة رومة أشهرهم « سينكا » و « أبكتيتوس » و « مرقس أوريليوس » ، فرفعوا لواء المذهب وأيدوا سلطانه . وكان للرواقية آثار لا تنكر فى التشريع الرومانى .

وانتشرت فلسفة الرواق إبان القرون الأولى للمسيحية ، وتردد صداها فى الشرق أيضاً : فإننا إذا درسنا « أفلوطين » الفيلسوف الإسكندرانى ، وجدناه قد استقى الكثير من آرائه المتصلة بعالم الحس من الطبيعيات الرواقية ومن الآراء الفلكية والطبيعية فى كتاب « طيماوس » لأفلاطون[١] .

ولما استقرت الديانة المسيحية وانتظمت عقائد ومذاهب جديدة ، اقتبست من الفلسفة الرواقية ما يلائم روح تعاليمها ، وكان أكثر اقتباسها من أنظار الرواقيين الأخلاقية[٢] .

ولم يقف جريان التيار الرواقى عند حد المدارس اليونانية والرومانية والمسيحية ، بل تجاوزها إلى المدارس الإسلامية ، وخلف فى العالم الإسلامى آثاراً مختلفة نخص بالذكر منها ما يتعلق بالنظرات الطبيعية والصوفية .

وفى عهد إحياء العلوم (الرنيسانس) أقبل الناس على الرواقية متحمسين فتدارسوها وأنعموا النظر فيها . وما لبثت أن تسللت إلى منازع عقائدهم ومسارح عواطفهم . وبدا بعد ذلك أثرها على أقلام الكتاب والمفكرين : وحسبنا أن نشير هنا إلى أثرها فى « المحاولات » للكاتب الأخلاقى الفرنسى « مونتينى » (Montaigne) .

ولا مراء فى أن الرواقية إبان القرن السادس عشر قد نفخت من

---

(١) E. Bréhier, *La Philosophie de Plotin*, Paris 1928, p. 110.

(٢) Thamin, *Saint Ambroise et la morale chrétienne*, p. 218.

روحها فى المذاهب المسيحية التى نادى بها وقتئذ دعاة الإصلاح الدينى . ولا أدل على ذلك من مقارنة كثير من آراء المصلح الدينى الفرنسى « كَلْفان » (Calvin) ولا سيما فى كتابه « النظام المسيحى »[١] .

فإذا جاء القرن السابع عشر ، وأخذ ديكارت يبحث عن أصول الأخلاق الفطرية ، لم يجد فى هذا الصدد خيراً من كتاب « الحياة السعيدة » لسِنِكا الرواقى . وأثر الرواقية ظاهر فيما كتب ديكارت فى شئون الأخلاق . ولعل من أبلغ آثار الرواقية فى القرن السابع عشر ما نراه فى مذهب سبينوزا وغيره من الفلاسفة ورجال الدين[٢] ، نخص بالذكر « بوسويه » وما فى خطبه من نفحات رواقية[٣] ، و « ليبنتز » الذى يذكر الرواقيين فى أكثر من موضع من كتابه « تيوديسيه » (العدالة الإلهية) ، ثم هو يكاد يوافقهم فى آراء فلسفية كثيرة : كالتفاؤل والغائية والحرية والمجهود وما إليها .

ولا بد أن يلاحظ المتأمل شيئاً من هذه الآثار الرواقية عند « كانْتْ » متجلية فى كتابه « دعائم ميتافيزيقا الأخلاق » ، الذى شاد فيه الفيلسوف الألمانى مذهبه فى الأخلاق على أسس الإرادة المحضة التى تعارض مبادىء الأخلاق النفسية أو أخلاق العواطف أشد معارضة .

وإذا بدا لنا أن نبحث عن آثار الرواقية عند غير الفلاسفة من الأدباء والمفكرين لم يعسر علينا أن نستروح نفحاتٍ رواقيةً قوية عند بعض

---

(١) Imbart de la Tour, *Calvin*, Paris 1935, p. 16.

(٢) Strowski, *Etudes sur le sentiment religieux au XVIIe siècle en France.*

(٣) Cf. Bossuet, *Sermon sur la Charité fraternelle.*

الأخلاقيين المنيّين بالتربية والاجتماع مثل « جان جاك روسو » وعند الشاعر « ألفرد دوڤيني »[١] وعند المنشىء « إمرسن » وعند كثيرين غيرهم .

على أننا إذا نظرنا إلى ثقافة الجيل الحاضر فلا يبعد أن نجد فى أهله من يعكفون على دراسة المذهب الرواقى[٢] ، فيطالعون رسائل « سِنِكا » أو محادثات « إپكتيتوس » أو خاطرات « مرقس أوريليوس » ، ملتمسين عندهذا أو ذاك لذة عقلية أو غذاء روحياً أو جمالا أخلاقياً .

يحملنا ما ذكرنا من اعتبارات على أن نقرر غير مسرفين أن الرواقية ما برحت بين المذاهب الفلسفية القديمة من أكثرها حيوية وأبعدها فى الفكر أثراً . والحق أن لفلسفة الرواق سحراً دائماً . وليست تعوزنا الشواهد على أنها ما زالت تجذب إليها عقول المستنيرين وقلوبهم فى زماننا هذا[٣] . ومرجع ذلك — فى نظرنا — إلى أمور : منها أن الرواقية فى صميمها فلسفة عملية ؛ وأصحاب الرواق كانوا بطبيعة ميولهم ومذهبهم « لا يحبون من الكلام إلا ما تحته عمل » كما يقول بعض المسلمين ؛ وكانوا من جهة أخرى يؤمنون بسمو مكانة الفلسفة وجلال رسالتها ومقدرتها على أن تكون للناس هدى ورشاداً . زد على ذلك أن أخلاق الرواق قد أوتيت من العمق والنبل حظاً غير قليل فكانت من هذه الناحية أدنى إلى إرضاء كثير من حاجات الضمير الحى ومطامح الوجدان الأخلاقى العالى .

---

(١) راجع مثلا قصائده المشهورة : « موت الذئب » و « موسى » و « الأقدار » .

(٢) أتيح لنا شخصيا أن نستمع إلى بحث ظريف فى مواضع الاتصال بين منطق « بِرتراند رَسِيل » والمنطق الرواقى ، ألقته الآنسة « أنتوانت ريمون » فى « المؤتمر الدولى للفلسفة العلمية » الذى عقد بباريس من ١٥ إلى ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣٥ .

(٣) W. L. Davidson, *The Stoic Creed*, 1907.

الفصل الأول

عصور الرواقية وحكماؤها

العصور الثلاثة :

ليست الرواقية من صنع رجل واحد ، وإنما هى جملة نظرات متعددة الينابيع . وقد تطورت على مر الزمان واصطبغ الكثير من أجزائها بألوان مختلفة .

وقد اصطلح على تقسيم المذهب الرواقى إلى ثلاثة عصور كبرى :

(ا) الرواقية القديمة : ومدتها من سنة ٣٢٢ إلى سنة ٢٠٤ قبل الميلاد . وأقطابها المبرزون هم : «زينون» و«كليانتس» و«كروسبوس» . وسنتناول فلسفتهم بالتفصيل .

(ب) الرواقية الوسطى : ومدتها القرنان الثانى والأول قبل الميلاد . ومن أشهر أنصارها « پانيتوس » و « پوسيدونيوس » . وقد تسربت إلى رواقية ذلك العصر آراء مشتتة من مدارس أخرى ، على أنها تكاد تقترب من مذهبي أفلاطون وأرسطو بوجه عام .

(ح) الرواقية الحديثة : وتمتد من القرن الأول بعد الميلاد وتظل قائمة حتى الوقت الذى أغلقت فيه المدارس اليونانية عام ٥٢٩ بعد الميلاد . وأقطاب الرواقية الحديثة من الرومان هم « سينكا » و « إپكتيتوس »

و « مرقس أوريليوس » . وهم جميعاً يمثلون رواقية صبغت صبغة دينية ظاهرة . وسنفظر فى سيرهم وفلسفتهم فى الباب الثالث من هذا الكتاب .

١ — الرواقية القديمة

زينـــون

شيخ الفلاسفة الرواقيين القدماء . ولد حوالى سنة ٣٣٦ قبل الميلاد بمدينة « كتيوم » بجزيرة قبرص على الشاطىء المقابل لفينيقيا[١] . ويستحيل التوفيق بين جميع الروايات التى ذكرت إقبال « زينون » على الفلسفة بعد اشتغاله بالتجارة ؛ ولكنا نستطيع أن نصدق ما قيل من أنه جاء إلى أثينا أول الأمر فى شأن من الشئون التجارية . تذهب أقدم الروايات عن « زينون » إلى أن أباه كان تاجراً من تجار قبرص ، فاشترى فى بعض أسفاره كتباً للسقراطيين وخصوصاً كتاب « المذكرات » لأكزنوفون ، فلما قرأ « زينون » تلك الكتب رغب فى الذهاب إلى أثينا ليتلقى عن أولئك الأساتذة[٢] . وتحدثنا رواية أخرى أن « زينون » كان فى سفينة تحمل بضاعة من أرجوان الفينيقيين ، فغرقت السفينة على مقربة من « بيرى » ونجا « زينون » فقصد إلى أثينا . ونقول نحن : لا شك أن التاجر الشاب وجد فى أثينا عالماً جديداً لا عهد له به ، يتكلم الناس فيه عن أشياء تتجاوز

---

(١) كان الأثينيون يطلقون على زينون اسم « الفينيقى » . ويظهر أن زينون نفسه رأى أن واجبه نحو بلده « كتيوم » أن يرفض لقب « المواطن » الذى كان الأثينيون مستعدين أن يمنحوه إياه . (بلوتارك : « تناقضات الرواقيين » فصل ٤) .

(٢) Diogène Laerce, *Vie des Philosophes*, VII, 31.

أمور المكسب والخسارة فى التجارة ؛ وإذ كانت الحركة الفلسفية مزدهرة بمدينة أثينا فى ذلك الحين ، فلا عجب أن نرى « زينون » يجعل بلاد اليونان مقامه ريرتضيها لنفسه وطناً ثانياً . ويظل « زينون » فى أثينا مقبلا على التعلم ، متنقلا من مدرسة إلى أخرى ، غير قانع بما عند أستاذ واحد : يروون أنه كان يحضر دروس « أقراطيس » الكلبي ، فلما سئمها أراد أن يغادر مجلس ذلك الأستاذ ليستمع إلى دروس « استايون » الميغارى ، فجذبه « أقراطيس » من عباءته يريد أن يمنعه من الانصراف ، فقال زينون : « يا أقراطيس ، إن الفلاسفة لا يجذبون إلاّ من آذانهم » ! ولعله يريد بذلك التعريض بما كان فى التعاليم الكلبية من فقر وقلة كفاية من الناحية العقلية . وتردد زينون على المدارس الفلسفية اليونانية زهاء عشرين عاماً . ولما أصاب منها بغيته اتخذ لنفسه مجلساً للتعليم مستقلاً فى إيوان ذى أعمدة هو الرواق المنقوش الذى كان فيما مضى منتدى للأدباء والفنانين ، ومن ذلك المكان اشتق اسم المدرسة الرواقية[1] .

١ — ولقد عاب بعض القدماء على زينون أنه جعل من مدرسته أشبه الأشياء بملجأ لأهل البطالة ومأوى للفقراء والمساكين . لكن آخرين يروون ما يفهم منه أن زينون كان يجانب العامة ، وأنه لكى يتفادى مزاحمة الرعاع ، كان يشترط قدراً من المال لا بد أن يدفعه مستمعوه . ومهما يكن من شأن الجمهور الذى كان يختلف إلى المدرسة الرواقية ، فالذى لا شك فيه أن نفوذ زينون على تلاميذه ومريديه كان نفوذاً بعيد المدى ،

---

(١) راجع الفارابى : « ما ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » فى كتاب « المجموع من مؤلفات أبى نصر الفارابى » . طبع مصر (الخانجى) سنة ١٩٠٧ ص ٥٨ .